جامعة محمد بوضياف المسيلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة مقياس المصادر الفلسفية

الأستاذ: بوراس يوسف

المحاضرة الثامنة: مقدمة ابن خلدون2

تمهيد: معلوم أن مقدمة ابن خلدون قد تطرقت إلى مواضيع شتى في مختلف المجالات لذلك سنركز في محاضرتنا الثانية هذه على جملة من النقاط تناولتها مقدمة ابن خلدون، في جوانب عدة هي الاجتماع أو العمران وموضع الدولة في السياسة.

1. علم العمران (علم الاجتماع): ينطلق مالك بن نبي في فكرته حول العمران البشري من حقيقتين هما التعاون والعدوان الذين هما ضروريين للاجتماع الانساني، كونهما تحفظان البقاء الإنساني ونوعه، وهو يرى بأن "هذا هو معنى العمران"[1]. غير أن هذا الاجتماع لابد له من وازع، حيث يكون لأحدهم الغلبة والسلطان على افراد جماعته، "وهذا هو معنى الملك"[2]. وانطلاقا من هذا فلابد للبشر من الحكم الوازع أو قيادة سياسية. وهو لا يكتفي بهذين العاملين لاستقرار الحياة السياسية بل يضيف لهما عاملين آخرين هما البيئة الجغرافية والصنائع أو ما يكن تسميته بالاقتصاد.

فبالنسبة للعامل الجغرافي فقد ربط ابن خلدون بين طباع الناس أو أمزجتهم وبين نوع البيئة الجغرافية التي يعيشون فيها فبالنسبة لمن يعيشون في بيآت معتدلة مثلا يصفهم بأنهم "أعدل أجساما، وألوانا، وأخلاقا، وأديانا، حتى النبوءات، فإنما توجد في الأكثر فيها... ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم"[3]. كما أن العمران يكثر في مثل هذه البيآت المعتدلة، فيقول "قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض، إنما هو وسطه، لإفراط الحر في الجنوب منه، والبرد في الشمال"[4].

وأما بالنسبة للجانب الاقتصادي او جانب المعاش، فهو يفصل في أمرين: أولهما اختلاف الصنائع حسب المستوى الحضاري لكل مجتمع، فإذا كانت كل الأمصار تتوفر على صنائع كالحدادة والخياطة والنجارة، "فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة، الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجّاج، الصائغ، الدهّان، الطبّاخ، الصفّار، الفراش والذبّاح، وأمثال هذه، وهي متفاوتة"[5].

وثانيهما نوعي المعاش عند البشر أحدهما وجه طبيعي للمعاش، والآخر غير طبيعي. فحول الوجه الطبيعي للمعاش فيتمثل في الفلاحة والصناعة والتجارة في المجتمعات البشرية، حيث يبدأ

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، بد ط، 2001، ص

[2] المصدر نفسه، ص40.

[3] المصدر نفسه، ص ص 68، 69.

[4] عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 69.

[5] المصدر نفسه، ص281.

الكلام بالفلاحة التي هي أقدم أصناف المعاش التي عرفها البشر وهي ما يعيش عليها خاصة أهل البدو "إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم"[1].

وتليها في الظهور الصناعة والتي هي أكثر تقدما منها لأنها "مركبة وعلمية، تصرف فيها الأفكار والأنظار، ولهذا لا توجد غالبا، إلا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو، وثان عنه"[2]، بينما يرى أن التجارة تقوم على معاملات البيع والشراء بين البشر حيث يرى أنه كثيرا ما يشوبها التحايل.

ثم يتحدث عن النوع الثاني للمعاش وهو النوع الغير طبيعي والمتمثل في الإمارة والتي لا تعد بالنسبة لابن خلدون مذهبا طبيعيا للمعاش، لأنها ترتبط بأحوال الجبايات السلطانية وأهلها[3].

2. أطوار الدولة عند ابن خلدون: يفسر ابن خلدون نشأة المجتمعات وقيام الدول إلى حاجة الناس إلى التجمع إلى بعضهم البعض ولتوفير المأكل والملبس والمسكن، وهو مايترتب عنه وجود الصناعات والمصالح، وهو ما يستلزم وجود سلطة تنظم العلاقات بينهم لتحقيق الاحتياجات وللدفاع. ولذلك وجد الحاكم.

والدولة حسب ابن خلدون مثلها مثل الإنسان تمر بثلاث أطوار أو مراحل: مرحلة البداوة، تليها مرحلة التحضر، لتختمها بمرحلة التدهور والأفول. ويبلغ مدى كل طور أربعين سنة قياسا على عمر الجيل الواحد من الناس.

1.2: طور البداوة: وهي المرحلة التي تسبق طور الحضارة، ويطلق تسمية البدو على هؤلئك الناس الذين لا يخضعون لقوانين التحضر، حيث تحكمهم حاجاتهم وعاداتهم. وهم يجتمعون لتحقيق حاجاتهم الضرورية خاصة. وتحكمهم علاقة العصبية وهم أهل الأصل الواحد كما قد يضاف إليهم مواليهم، وأحلافهم، وكلما ازدادت القرابة ازدادت العصبية، ويدعم العصبية عاملان هما الاحترام لشيخ القبيلة، وحاجتها المستمرة للدفاع والهجوم"[4]. والعصبية الأقوى تظم لها بقية العصبيات بالغلبة.

ويصف ابن خلدون البدو فيقول:" لا يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون"[5].

---

[1] المصدر نفسه، ص286.

[2] المصدر نفسه، ص286.

[3] عواطف عطيل لموالدي، ابن خلدون وعلم العمران البشري، مجلة تاريخ المغرب العربي (ص189، ص229)، العدد التاسع، ماي 2018، ص199.

[4] رأفت غنيمي الشيخ، المرجع نفسه، ص50.

[5] المرجع نفسه، ص 50 (المقدمة، ص120)

ويعطي ابن خلدون مكانة كبيرة للأخلاق في دعم العصبية، ويطلق عليها الخلال الحميدة، حيث أن صفات الخير من شيم الملك، حيث يتنافس أهل العصبية في الخير من كرم وعفو...إلخ.

2.2: طور الحضارة: وقد تصادف هذه العصبية دولة في طور الأفول، فتنقض عليها، فيصير الملك لها. ويوجه هذه العصبية مبدأ ديني حيث يتحقق به التعاضد ويزول التنافس. ويبدأ إنشاء المدن بعد تحقق الدولة في الواقع لما يتوفر لأهل العصبية من مال ووسائل بشرية ومادية لذلك والسبب في إنشائها إتخاذها مقرا للحكم، وليتحقق بها رغد العيش. وتحقق هذه الدولة تقدمها وتحضرها وفق ثلاثة شروط: مزايا الأرض، ومزايا الحكومة، وكثرة السكان: "أما الأرض فلأنها مصدر الإنتاج، وما الحضارة إلا ثمرة عمل منظم متواصل للنشاط البشري لاستثمار الأرض، وأما الحكومة فإنها يجب أن تكون قوية لحماية السكان وليطمئنوا على ثمار عملهم، عادلة لتشجعهم على مواصلة نشاطهم والتمتع بثمرته، كريمة لتشجع التجارة وتفرض الضرائب المعقولة"[1]، وأما كثرة السكان فتظهر في ارتفاع الإنتاج بفضل تنظيم جهودهم، فيحصل الترف الذي يأتي بكثرة النسل المقوي للعصبية. كما يؤدي هذا الحال من التحضر إلى الاستكثار من الموالي حيث يستغلهم صاحب الأمر لإبعاد عصبيته. كما تبرز قوة الدولة في عظمة مبانيها التي تكون نتيجة اجتماع الأيدي على العمل وقوة الفعلة.

3.2 طور التدهور: ما لاحضه الباحثون أنها نفسها أسباب الصعود أسباب التدهور والسقوط، فكما أسلفنا في أمر العصبية والتي كانت سبب القوة والتأسيس، تصبح عامل هدم، إذ يقوم الحاكم باستبعاد أهل عصبيته ونفيهموجذع أنوفهم، فيتحولون من عامل منعة إلى عامل تهديد وعداء، ويعاني في ذلك أشد مما عانى في إقامة الملك، إذ يصبح مقاوما لعصبيته باستخدام الأباعد رغبة في الإستئثار بالملك، بعد أن كان عكس ذلك.

ويضاف نتيجة لهذا عامل آخر مؤد لتدهور الدولة، وهو أن الموالي وأهل الصنائع (من صنع لهم معروفا)، ونتيجة لحاجة الملك إليهم فإنه يخصهم بمقاليد الأمور من وزارة وجباية وغيرها، وحيث أنه ليس لهم قوة الشكيمة فتضعف نتائج أعمالهم فيكون ذلك من أسباب التدهور، بل قد يتجاسرون عليه، فيستعين عليهم بالجيش، فتقل الحاميات في الأطراف (الحدود).

لكن قد يكون أهم عامل لتدهور الدولة هو الترف، والذي كان في البداية عامل قوة، ولذلك أسباب اقتصادية وأخلاقية ونفسية.

فأما الجانب الاقتصادي فنظرا لما في الترف من تعبير على قوة الملك فإن الحاكم يعمد إلى التوسعة على عصبيته وحاشيته ووجوه القبائل والجند والبطانة، فتكثر الأعطيات ولأرزاق، وسرعان ما يتعدى الأمر إلى عامة الناس، إذ الرعية على دين ملوكها، وهو ما يؤدي إلى قلة الجباية (الضرائب)، فتزداد الجبايات وتتنوع مما يؤدي إلى الكساد. كما أنه يتجاسر الجند على الحكام مما يؤدي إلى مداراتهم بالأعطيات وحيث لا تكفي الضرائب، فإن الحاكم يعمد إلى التجارة

[1] أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، بد ط، 1975، ص145.

فيشتري الحاككم بأسوام بخسة من الفلاحين والصناع، مما يؤدي إلى كساد الأسواق وعطالة التجار والفلاحين. بل قد يؤدي إلى فرار النا بأموالهم... فيعم الضعف والوهن

كما أن العاملين الآخرين من أخلاق ونفس، فنجد أن الترف يذهب الحياء والوقار وغيرها من شيم الأخلاق، كما يذهب الخشونة والعصبية... فيصبحون عيالا على الدولة من حيث الدفاع عنهم[1].

3. تحريف مقدمة ابن خلدون: انطلاقا من وثيقة تاريخية فقد ثبت تحريف كتابات ابن خلدون، وذلك بإضافة أشياء لم يكتبها، مما يثبت تزوير الحقائق التاريخية وأنه قد تم نسب لابن خلدون ما لم يقله أو يدونه بحق العرب وغيرهم من الأقوام، وهذا بأمر من الملك فيليب في اسبانيا الاندلس سابقا.

فيما يلي رسالة كتبها أحد النَّساخين العرب في الأندلس, يشرح فيها كيف تم تزوير تاريخ العرب في الغرب الإسلامي من خلال تحوير وتحريف وإضافة الكثير من المقولات المسيئة لهم و للأقوام المسلمة في بعض أمهات الكتب العربية.

نص الرسالة:

اعلم يا أخي أني عبد مأمور لا حول له ولا قوة وإني ما عدت إلى طليطلة من فاس إلا بأمر من الملك فيليب أحمل له كتباً من خزانة السلطان. إن القادر الذي لا يعجزه شيء قد شاء أن ينكشف أمر صاحبي وخليلي فأذاقه فيليب من السم القاتل الذي أتيناه من فاس حسب طلبه وإني لا محالة هالك. بنفس السم إن عاجلاً أم آجلاً ولن أترك حراً طليقاً لأذيع خبر النُّسَّاخ المائة والخمسين الذين أنا منهم نعمل في السر ليلاً ونهاراً, في إعادة كتابة ما لدينا من مخطوطات عربية ولعل السلطان أدام الله عزه هو الذي أمر بالقضاء علينا بعد أن وقَّعنا على مشيئته في تعديل مخطوطات " كتاب العِبَر" الذي حملناه معنا إلى هذا الدير من خزانته والذي لا يحمل في الأصل كلمة "بربر" في عنوانه. واعلم يا أخي أن هذه شهادتي قبل أن أموت وإني اقسم بالله العظيم والقرآن الكريم أني رأيت النُّسَّاخ الموريسكاس يعيدون كتابة كتاب العِبَر وغيره فيبدلون كل ذكر لكلمة "أعرابي" في كتاب ابن خلدون بكلمة "عربي" ويضيفون فصولاً بكاملها في مدح البربر حسب مشيئة السلطان وبذم العرب حسب ما بنفوس أصحاب الدير يحذفون فصولاً بكاملها في ذكر مآثر العرب مما كتبه ابن خلدون اعلم يا أخي أن السم الذي أتينا به من فاس سيستر هذه الحقيقة إلى الأبد عن أهل الدنيا قاطبة واعلم أن هذه الورقة هي شهادتي أمام ربي يوم الحشر وإن هذا الفهرس الذي أدفن شهادتي فيه إنما هو واحد من أربعة فهارس ضمنتها أسماء ما جرى التعديل والتبديل عليه من كتب. وأن جميع ما يظن المسلمون أنها أصول محفوظة في خزائنهم إنما هي نُسَخٌ زُوِّرَت بخط يماثل خط وتواقيع أصحابها وأنا ومن معي من الموريسكاس الإسبان أنا الذي أكتم إسلامي وعروبتي. قد ساعدت في هذا العمل الكريه أسوة بمن حولي من مسلمين غُلبوا على أمرهم. نعمل سوية مع (.....) يهود جميعنا في خدمة الاسكوريال والملك فيليب الثالث الذي قرر طردنا جميعاً من الأندلس. ربي اجعل من لدنك قوة تخرج هذا الفهرس من هذا الدير. سأقذف به من الفتحة هذه عله يبقى سليماً حتى أصل إليه أو ينقذه أحد من المؤمنين. ربي هذه شهادتي يوم الدين. والآن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ووليه ورسوله[2].

[1] أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، المرجع السابق، ص 148.

[2] أحمد داوود، تحريف مقدمة ابن خلدون، المنتديات الإسلامية، الوضع في الموقع: 2014/07/21، التحميل: 2023/12/23. https://allmofid.com/showthread.php?tid=7382.